الفصل السابع عشر

دعوة احتفال فى رئاسة الجمهورية !

صباح أحد أيام شهر يوليو من العام الماضى (٢٠٠٤)، استيقظت على رنين الهاتف الرابض دائمًا إلى جوار الفراش، كان المتحدث على الجانب الآخر، معد برامج التليفزيون الصديق «أيمن عواد»، سألنى فى لهفة:

- أنت صاحب كتاب «النفط والأموال العربية فى الخارج»؟
- أجبت باقتضاب .. نعم.
- إذن مبروك .. لقد حصلت على جائزة الدولة التشجيعية فى الاقتصاد هذا العام، أنا أحدثك من مكتب الدكتور جابر عصفور .. ستعلن النتائج فى وسائل الإعلام بعد قليل.

قالها «أيمن» بسرعة الرصاص .. ثم أغلق الخط.

وما بين الغفوة والاستيقاظ، أخذت فى الانتباه قليلًا، وقد انتابنى حالة من الدهشة، ولا أدرى لماذا لم أشعر بالفرح!.

كيف لى بالفرح، والقلب والعقل مفعم بالأحزان والشجن، فها هى العراق تحتل وتدمر، وها هى فلسطين تواجه مصيرها وحدها، وشعبها يذبح وبيوتها تهدم على مرأى ومسمع من العالم كله، ولم يتحرك أحد، ولم ينبس بكلمة حاكم عربى واحد، ولا مسئول واحد فى مصر؟!

ليس للقلب مكان للفرح .. !

ولكنى أعترف بكل الصدق، بأننى قد شعرت بالارتياح .. فقط الارتياح، فها أنا ذا أخيرًا أفرض نفسى، بأبحاثى واجتهاداتى العلمية التى استمرت لأكثر من عشرين عامًا على المؤسسة الثقافية الرسمية، برغم الطابع الانتقادى الواضح والحاد أحيانًا

لكتاباتى ومؤلفاتى جميعًا، وبرغم كونى من خارج المؤسسات الأكاديمية أو الصحفية التى توزع على بعض أعضائها الجوائز من باب المجاملات الاجتماعية أو السياسية.

وأعترف كذلك بأن ارتياحى كان يمتد إلى أعمق أعماقى بسبب ما تعرضت له من حرب ضروس وغير أخلاقية من جانب أحد مديرى مراكز الأبحاث الاستراتيجية وبعض بطانته من أنصاف الباحثين، حتى لا أعود مرة أخرى إلى هذا المركز الذى تركته بمحض إراداتى حينما لاحت فى الأفق عام ١٩٨١ بوادر التطبيع الثقافى مع إسرائيل وكانت معركة استضافة «عبد الوهاب الدراوشة» وبقية أعضاء الكنيست العرب.

المهم .. كان الارتياح النفسى لحصولى على جائزة الدولة التشجيعية فى العلوم الاقتصادية والقانونية له ما يبرره، ولكنى عانيت من صراع نفسى مزدوج من نوع آخر، فقد كان الموقف البطولى والشجاع الذى اتخذه الأديب الكبير «صنع الله إبراهيم» منذ شهور قليلة ورفض فيها تلقى جائزة مماثلة، وأكبر كثيرًا فى القيمة النقدية (١٠٠ ألف جنيه) ما زالت ترن فى الساحة الثقافية المصرية والعربية، وهنا دار الصراع هل أقبل هذه الجائزة (وقدرها عشرة آلاف جنيه ضاعفها رئيس الجمهورية إلى عشرين ألفًا) أم أرفضها؟.

وأعترف لكم .. كان عقلى يرفضها .. وكان قلبى مع القبول!.

وأتذكر حينما مرض طفلى منذ عدة سنوات قليلة واشتبه الأطباء بمرض السرطان، وطالبونى بنحو ٢٥ ألف جنيه لبدايات العلاج، مما استدعى فى النهاية استئصال «الطحال» لابنى، لم أكن أملك من علاجه قرشًا واحدًا، ولولا مساندة الزميل الفقيد «رضا هلال» والزميل الكاتب الصحفى «محمود معوض»، وكذا مساندة فقيد الصحافة «عبد الوهاب مطاوع» بجريدة الأهرام وصداقاتهم لوزير الصحة السابق الدكتور «إسماعيل سلام» وإصدار الأخير لقرارات علاج «لطارق» على نفقة الدولة تجاوزت خلال عامين الخمسين ألف جنيه، لكان ابنى اليوم يرقد مع الأموات.

إذن .. بعد فترة تأمل صعبة وقاسية ارتضت نفسى قبول الجائزة، وحاولت إقناع نفسى ببعض أفكار الأصدقاء الذين تشاورت معهم وهم قلة قليلة جدًّا، بأن هذه الجائزة هى لدولة، وليست أشخاص، ثم إن من منحها لك هم لجنة متخصصة من الخبراء عاملت ضميرها المهنى واعترفت بجدارتك البحثية ولم تنظر إلى موقفك السياسى وهذا يحسب لأعضائها (د. مصطفى السعيد، د. يمنى الحماقى، د. محمد عاطف صدقى، د.رشاد موسى) ولا يضيف إليك.

وشجعنى على ذلك اتصالات هاتفية تلقيتها من بعض الزملاء الباحثين والكتاب، من هنا وهناك تشع كلها بالفرح والشعور الصادق الذى عبرت عنه كلماتهم التى دارت حول معنى واحد:

- أن الجائزة تشرفت بك بأكثر من تشرفك بها، وأن هناك أملًا الآن بأن يعمل المرء منا وقد يحصل عليها دون أن تدخل حسابات المجاملة التى أساءت إلى سمعة هذه الجوائز.

نعم .. كان شعورًا صادقًا، شجعنى على قبول الجائزة التى كنت فى مسيس الحاجة إلى قيمتها النقدية.

وفى الموعد المحدد ذهبت إلى المجلس الأعلى للثقافة وتسلمت «شيك» الجائزة، وتصورت أن الأمر قد انتهى عند هذا الحد، ولكن ما تصورته لم يكن صحيحًا أو دقيقًا.

فما هى إلا أيام قليلة، وأثناء إحدى المناسبات، التى حضرها رئيس الجمهورية، إذ به يفاجأ الجميع بالتصريح بأن قيمة جوائز الدولة لم تعد مناسبة، لذا فقد قرر من جانبه مضاعفتها جميعًا، وأنه سيتولى تسليم شهاداتها بنفسه!.

ومرة أخرى أسقط فى يدى .. فقد تلقيت الدعوة من وزير الثقافة لحضور حفل تسليم الشهادات فى مقر رئاسة الجمهورية يوم الأربعاء الموافق ١٢ يناير الماضى

(٢٠٠٥) .. فكيف سأسلم على هذا الرجل الذى حكم مصر ربع قرن أو يزيد وأوصلها إلى حافة الانهيار السياسى والأخلاقى، وحولها إلى مجرد عزبة يتولاها أقرباؤه وأبناؤه وجماعات المصالح التى نهبت البلد دون رحمة أو واعز من ضمير؟.

ولكن دفعنى فضول الصحفى هذه المرة إلى الذهاب إلى هذا المكان والتعرف على ذلك «المعتقل» الرهيب الذى يسجن فيه الرئيس فيحرم من متع الدنيا والاختلاط مع الناس من أجل عيون مصر.

وبعد إجراءات الأمن المشددة المعتادة، انتظرت وغيرى من الحضور فى قاعة أو صالة كبيرة من قاعات القصر المنيف الذى يسجن فيه الرجل، فتحسرت على حالنا نحن الفقراء الذين تعرضنا لسجون النظام منذ عام ١٩٧٧ وحتى عام ١٩٨٩ (وهى آخر حبسة تعرضت لها وعذبت فيها كما سجلت أحكام القضاء).

ثم أدخلونا قاعة أكبر، وأجلسونا فى مقاعدنا المخصصة بالأسماء، وجاءت جلستى إلى جوار الصديق الصحفى الشاب «صلاح سالم» والأكاديمية الدكتورة «سلوى شعراوى جمعة»، وبعد حوالى نصف الساعة، دخل بعض الوزراء والمسئولين، وفى طليعتهم السيد «أحمد نظيف» رئيس الوزراء الجديد، ووزير الثقافة «فاروق حسنى».

ورأيت مشهد لم أره فى حياتى .. وأظن صادقًا أننى لن أره فى العالم المتحضر، والنظم المحترمة.

تقدم السيدان رئيس الوزراء ووزير الثقافة إلى الطاولة التى سيجلسان عليها هما ورئيس الجمهورية، وتصورت لبرهة أنهما سيجلسان على مقعديهما، أو إلى أى من المقاعد حتى لحظة دخول السيد رئيس الجمهورية، فيقومان ليقفا فى استقباله، كما يحدث فى كل الدنيا المتحضرة، ولكننا شهدت شيئًا مختلفًا تمامًا، لقد وقف كليهما خلف مقعديهما لمدة سبعة دقائق كاملة فى انتظار دخول السيد حسنى مبارك.

نظرت إلى زميلىَّ «صلاح سالم» والدكتورة «سلوى جمعة» وعلى وجهى ملامح حالة من الاندهاش والعجب، ولم أتمالك نفسى من الضحك المكتوم والمسموع أيضًا إلى أفراد الحراسة، الذين سارعوا بدورهم إلى لفت نظرى إلى ضرورة الهدؤ والصمت.

نظرا إلىَّ كلاهما والابتسامة الخجولة تكاد لا تفارق وجهيهما والمغزى واضح لنا جميعًا، وعاودنا المشهد الهزلى .. نعم مشهد هزلى يعبر بذاته عن مأساة العبودية التى يعيشها عبدة الوظيفة والمناصب فى هذا البلد المبتلى بحكامه ومحكوميه معًا وتذكرت وقتها مقولة سيدنا على أبن أبى طالب؛ حينما قال:

«الغنى فى الاستغناء»

أليست فعلًا حكمة جديرة بالتأمل.